هو سبحانه يستخدم الفعل المضارع لتظل الصورة فى أذهاننا مستحضرة فى الحال وفى الاستقبال . والحق يقول : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » وكيف يقول الحق : إنهم يقتلون الرسل ، والرسل لا تقتل ،وأنه سبحانه يريد أن يجعل لهم من العمر ما يمكنهم من تمام البلاغ عنه ، إن الأنبياء فقط هم الذين يجوز عليهم القتل ؟ ونقول : إن الأنبياء رسل أيضاً بدليل أن الحق قال :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الاية ٥٢ سورة الحج)

إن كليهما مرسل ، والفرق أن الرسول يصحب وينزل معه منهجه ، والنبى مرسل كنموذج هداية بمنهج قد سبق . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

« وحسب » إن كانت بفتح الحاء وكسر السين فمعناها الظن ، وإن كانت بفتح الحاء وفتح السين فبمعنى « عد » ، والحسبان هو أن تظن وترجع وجود الشيء . والذين أخذ عليهم الله الميثاق وهم ـ بنو إسرائيل ـ ظنوا أن تكذيب الرسل وقتلهم لا يكون فتنة . ويعنى أنهم لم يعلموا علم اليقين ، وقد رجحوا ألا تكون فتنة . والأصل فى الفتنة ـ كما قلنا ـ عرض الذهب على النار ليتم تنقيته من الشوائب . والفتنة ـ كما نعرف ـ هى الاختبار ، إما أن ينجح فيه الإنسان وإما ألّا ينجح . فكيف جاءهم الظن أن هذا ليس اختباراً ؟ لقد جاءهم هذا الظن من الخطأ الذى وقعوا فيه عندما قالوا :

﴿ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الاية ١٨ سورة المائدة)

والخطأ الذى تمادوا فيه عندما قالوا :

﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

لقد ظنوا أن الحق سيعاقبهم فقط على عبادة العجل ولن يعاقبهم على أى شىء آخر . وكان هذا ظناً خاطئاً . إن المنهج لم يأت لينجى أناساً بذواتهم مهما فعلوا ، ولكن المنهج جاء ليحاسب كل إنسان حسب ما عمل . ومن العجيب أنهم ظنوا الظن الخاطىء ولم يقوموا بحساب الأمر بحسابه الصحيح على الرغم من أنهم أهل تفوق فى العد والحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة أمر أو يكذبه . ومن العجيب أن من رحمة الحق بالخلق ساعة يؤاخذهم فهو يقول : لك كذا وعليك كذا . لكن ساعة يرزقهم فهو يرزقهم بغير حساب .

ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك وقال عنهم الحق : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ظنوا أن ذلك الأمر لا اختبار فيه وأنهم غير محاسبين عليه . ونعرف أن « أنْ » تنصب الفعل. وقال لى سائل : لقد سمعت قارىء القرآن فى المذياع ينطقها « وحسبوا ألا تكونُ فتنة » .

وقلت له : إن هناك ثلاثة من أكابر القراء فى صدر الإسلام هم : « أبو عمرو » و« حمزة » و« الكسائى » ، وكان لكل منهم أسلوب متميز . وعندما نعلم أن « أنْ » تنصب الفعل لا بد أن يكون الفعل الذى يليها لا يدل على العلم واليقين والتبين ، « فأن » بعد العلم لا تنصب ، كقوله الحق :

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

وألفية ابن مالك تقول : (وبلن انصبه وكى كذابأنْ لا بعد علم) . أما « أن » التى من بعد ظن فمن الممكن أن تنصب ومن الممكن أن يُرفع الفعل بعدها ، فالذى رجح وجود الفعل وأدركه إدراكا راجحا يرفع ، والذى لم يكن لديه هذا الإدراك الراجح ينصب ، والرفع هو قراءة الكسائى وأبى عمرو وحمزة . فقد بنوا الأمر على أنَّ الرجحان يقرب من اليقين . ومادام قد حدث ذلك تكون « أنْ » هنا هى « أن » المؤكدة ، لا « أن » الناصبة ويسمونها أن المخففة من الثقيلة فأصلها أنَّ . « وحسبوا

ألا تكون فتنة » . وتأتى « فتنة » بالرفع لأنها اسم تكون . و « تكون » من « كان ».

و « كان » لها اسم مرفوع وخبر منصوب . وهى هنا ليس لها خبر ؛ لأنها من « كان التامة » . فهناك « كان الناقصة » وهناك « كان التامة ». ونقول ذلك حتى نتقن فهم القرآن ، مثلما نقرأ قوله الحق :

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ..﴾ (من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

و «كان » فعل ماض ، و« ذو عسرة » اسم كان التامة ؛ لذلك لا خبر لها ؛ لأن المقصود هو القول : وإن وُجِد ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . ولابد لنا أن نعرف ما معنى « تام » وما معنى « ناقص » ؟ نعلم أن كل لفظ ننطق به يدور حول أمرين اثنين ، إما لفظ مهمل وغير مستعمل وإمّا لفظ مستعمل . والمستعمل هو الذى له معنى يصل إلى الذهن ساعة نطقه ويستقل به الفهم ، فإن كان لا دخل للزمن فيه فهو الاسم ككلمة « أرض » و « شمس » و« قمر » . وهناك لفظ لا يستقل بالفهم كحرف الجر « فى » مثلاً . صحيح أنه يدل على شىء في شىء ؛ ولكنه لا يستقل بالفهم ؛ لذلك لا بد أن ينضم لشىء ، كقولنا : الماء فى الكوب أو قولنا : التلميذ فى الفصل . فإن كان للفظ معنى ومستقل بالفهم ، والزمن له دخل فيه فهو الفعل .

مثال ذلك قولنا : السماء . إن السماء كانت فى الماضى وهى فى الحاضر وهى فى المستقبل . إذن فالزمن لا دخل له بها ، وكلمة : كلُوا نجدها تأتى من الأكل ، وهى معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه . ولفظ « فى » يدل على معنى غير مستقل بالفهم فلابد من أن ينضم لشىء آخر .

إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى قد يكون مستقلا بالفهم أو غير مستقل ، فإن كان مستقلاً بالفهم فإننا نسأل : هل الزمن جزء منه؟ وفى هذه الحالة يكون « فعلاً » وإن لم يكن الزمن جزء منه فهو الاسم. وإن كان غير مستقل بالفهم ويريد شيئاً آخر ليستقيم المعنى فهو « حرف » .

وهكذا تعرف الألفاظ . والفعل هو « معنى زائد عليه زمن » كقولنا : أكل ؛ فهى تعنى تناول إنسان طعامًا فى زمن ماض ، وهكذا نفهم قولنا : « كان » . فإن قلنا : « كان » بمعنى حدوث شىء فى الماضى ، كقولنا : « كان زيد مسافرًا » فهى ناقصة . وفى ضوء هذا نفهم قول الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

فإن أردت الوجود فقط من غير شىء جديد طارىء عليه ، فالفعل يكون تاماً لا يحتاج إلى خبر . وإن أردت الوجود مع أى شىء آخر فهو الفعل الناقص الذى تكمله بخبر . مثل قوله تعالى : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ألا توجد فتنة ، فهى لا تحتاج إلى خبر .

وكان مثل بنى إسرائيل كمثل التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة ولا يعلم أن فيها اختباراً آخر العام فيُمضى الوقت فى غير تحصيل ولا جد ولا اجتهاد بل فى لهو ولعب ، وكان هذا حسباناً خاطئاً ؛ لأن المنهج لم يأت اعتباطاً ، ولكنه جاء كنظام حركة للحياة ليعمله المؤمن . وكان المفروض أن يستقبلوا المنهج على حسب تعاليم المنهج . ومن العجيب أنهم ظنوا ولم يحسبوا بالحساب على الرغم من أنهم أهل علم بالحساب ، فهم حسبوا ـ بكسر السين ـ وما حسبوا ـ بفتح السين ـ وكان المفروض أن يقوموا بالحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة المسائل .

وكل شىء عند الله يكون بالحساب ، حساب للعبد وحساب على العبد . « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ظنوا أنها ليست اختباراً . وظنوا أن الرسالات والمناهج هى مسألة لا اختبار لهم فيها ، فلما عرفوا تعاموا عن ذلك وصموا آذانهم عنه . ونعلم أن وسائل الإدراك فى النفس البشرية هى السمع والأبصار والأفئدة :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فوسائل الإدراك : سمع ، وبصر ، وفؤاد . وما تراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه . أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غير له . وبذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين . والسمع هو وسيلة الإدراك التى توجد أولاً فى الإنسان حين يولد . ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شىء من عينيه ؛ لأنه لا يرى بدقة وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ومن بعد ذلك يبدأ فى الرؤية . لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه ينفعل ، كأن حاسة السمع هى التى توجد أولاً ، ولذلك يأتى لنا الحق بذكر السمع أولاً ومن بعد ذلك الأبصار ثم الأفئدة .

« فعموا وصموا » وهو سبحانه يسألهم أولاً عن التجربة الشخصية فيهم ، ولم يسألهم عن الذى سمعوه عن غيرهم فقط ، « فعموا » أى لم يروا حتى الأمور المتعلقة بهم ، ولم ينظروا فى آيات الكون ولم يسمعوا البشير ولا النذير ولا المنهج من الله ولا اتفقوا على تنفيذه . وسبحانه يعاتبهم أولاً على ما يتعلق برؤياهم هم ، فالأذن تسمع من الغير ؛ لذلك أخذ عليهم أولاً أنهم لم يستعملوا عيونهم . وحتى لو افترضنا أنهم لم يروا آيات الكون بأنفسهم فما بالهم لا ينظرون وقد جاءهم الرسول ودعاهم لينظروا فى كون الله وأن يعتبروا .

فإذا كانوا أولاً فى غفلة فلم يروا ، فلماذا لم يتنبهوا ويسمعوا سماع إذعان وانقياد عندما جاءهم البشير والنذير لينبههم ؛ لذلك « فعموا وصموا » منطقية جداً هنا .

وبعد ذلك قبل الله منهم ، وأنجاهم من فرعون وفلق لهم البحر ، وعبروا ، ولكنهم بمجرد خروجهم من البحر ، ومروا على قوم يعكفون ويلزمون ويقبلون على أصنام لهم يعبدونها . قالوا لموسى : نريد إلهاً كما لهم آلهة . وأمرهم موسى أن يتوبوا وقبل الله توبتهم . مع كثرة ما ارتكبوا من ذنوب . ومن بعد ذلك يتوب الله عليهم . « ثم تاب الله عليهم » .

والتوبة هى فتح مجال للنفس السوية لتنطلق فى الخير من جديد ، فلو لم يتب الله على من أذنب فماذا يكون موقف المذنب بلا توبة ؟ إنه يتمادى ويحس أنه ذاهب فى طريق الشر بلا عودة. وحين يقبل الحق توبة المذنب ، فذلك معناه أنه سبحانه يريد أن يحمى المجتمع من شره . والتوبة مراحل : الأولى : حين يشرع الله التوبة ، والثانية : أن يتوب العبيد . والثالثة : هى قبول الله للتوبة. وهذا ما جاء به الحق:

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ماذا تعنى توبة الله عليهم ؟ سبحانه لن يتوب عليهم توبة القبول إلا بعد أن يتوبوا . إذن فتوبة الله عليهم الأولى هي التشريع لهم بالتوبة ، ثم توبتهم ، ثم قبول الحق للتوبة . لكن هؤلاء عموا وصموا ، وعلى الرغم من ذلك لطف الله بهم . فماذا حدث منهم بعد ذلك ؟ عموا وصموا مرة أخرى « ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » .

و« عموا » مأخوذة من الفعل « عمى » ، ومثلها مثل « أكلوا » و« شربوا » و« حضروا » ، فأين الفاعل ؟ الفاعل هو « واو الجماعة » . وابن مالك قعّد لهذه المسألة ، فساعة تسند الفعل إلى اثنين أو إلى جماعة ، فلا بد أن تجرد الفعل من علامة التثنية أو الجمع ، فلا تقول : « قاما زيد وعمرو » ولكن تقول : « قام زيد وعمرو » ، ولا نقول : « قاموا التلاميذ » بل نقول : « قام التلاميذ » ، لأن مدلول « الواو » هو مدلول « التلاميذ » ؛ قال ابن مالك :

وجرد الفعل إذا ما أسندا لاثنين أو جمع كـ« فاز الشهدا »

أى أن الفعل إذا أسند لمثنى أو مجموع وجب تجريده من العلامة التى تدل على التثنية أو على الجمع . أما كلمة كثير فتعرب إما على أنها البدل من واو الجماعة ، وإما على إضمار مبتدأ أى العُمْىُ والصُّم كثير منهم ، وإما على أنها فاعل ويكون ذلك قد جاء على لغة طائفة من العرب وهم بنو الحارث بن كعب ، وهؤلاء قد يأتون بعلامة تدل على التثنية أو الجمع إذا أسند الفعل إلى اسم ظاهر مثنى أو مجموع مثل : قاموا الرجال وسافرا محمد وعلى .

وحمل بعضهم قوله تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » على هذا ، وكان قول الحق : « كثير منهم » صيانة للاحتمال بأن قلة منهم تدير أمر الإيمان فى قلوبهم ، وكلمة « كثير » جاءت حتى نتنبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يهمل أبداً القلة التى تدير أمر الإيمان فى خواطرهم . ليؤكد ويعاضد ما جاء فى قوله تعالى : « وأن أكثركم لفاسقون » . « ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » و« بصير » مثلها مثل « عليم » ، أى شاهد وليس مع العين أين . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾

وهناك ثلاث آيات تتعرض لهذه المسألة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » . والآية الثانية :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ (من الآية ٧٣ سورة المائدة)

والآية الثالثة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ (١١٦) ﴾

(من الآية ١١٦سورة المائدة)

إذن فالخلاف في المسألة جاء على ثلاث صور:

طائفة تقول : المسيح هو الله . وطائفة تقول : إن المسيح هو إله مع اثنين آخرين . وطائفة تقول : إن المسيح هو وأمه إلهان . ولكل طائفة رد . والرد يأتي من أبسط شيء نشاهده في الوجود للكائن الحي ، فالإنسان ـ كما نعرف ـ سيد الكون والأدنى منه يخدمه . فالإنسان يحتاج إلى الحيوان من أجل منافعه ، وكذلك يحتاج إلى النبات والجماد ، هذا السيد ـ الإنسان ـ يحتاج إلى الأدنى منه . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على تأليه سيدنا عيسى وسيدتنا مريم ، فقال :

﴿ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ (من الآية ٧٥ سورة المائدة)

وهذا استدلال من أوضح الأدلة . لا للفيلسوف فحسب ولكن لكل المستويات ، فمادامًا يأكلان الطعام فقد احتاجا إلى الأدنى منهما . والذي يحتاج إلى الأدنى منه لا يكون الأعلى ولا هو الواحد الأحد . والمتبعون لهذه الفرق الثلاثة مختلفون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولا تقولوا ثلاثة » وكلمة « ثالث ثلاثة » تستعمل على أنه واحد من ثلاثة لكنه غير معين . فكل ثلاثة يجتمعون معاً ، يقال لكل واحد منهم إنه « ثالث ثلاثة » . وليس هذا القول ممنوعاً إلا في حالة واحدة ، أن نقول : ثالث ثلاثة آلهة ؛ لأن الإله لا يتعدد . ويصح أن نقول كلمة : « ثالث اثنين » لأن الله يقول :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة المجادلة)

إذن فمن الممكن أن نقول : هو رابع ثلاثة ، أو خامس أربعة أو سادس خمسة . وهو الذي يصير الثلاثة به أربعة أو يصير الأربعة به خمسة أو يصير الخمسة به ستة . إننا إن أوردنا عدداً هو اسم فاعل وبعد ذلك أضفناه لما دونه ، فهذا تعيين بأنه الأخير . فإن قال قائل : الله رابع ثلاثة جالسين. فهذا قول صحيح . لكن لو قلنا إنهم آلهة . فهذا هو المحرم، والممنوع ؛ لأن الإله لا يتعدد .

ويلاحظ أن الحق لم يقل : ما يكون من نجوى اثنين إلاّ هو ثالثهم ؛ لأن النجوى لا تكون إلا من ثلاثة ، فإن جلس اثنان معاً فهما قد يتكلمان معاً دون نجوى ؛ لأن النجوى تتطلب ألا يسمعهم أحد . والنجوى مُسَارَّة ، وأول النجوى ثلاثة ، ولذلك بدأها الحق بأول عدد تنطبق عليه . فإن قلت : « ثالث ثلاثة » فهذا قول صحيح إن لم يكونوا ثلاثة آلهة .

والحق أراد أن يدفع هذا القول بالبطلان حين قال : « كانا يأكلان الطعام » . والطعام مقوم للحياة ومعطٍ للطاقة في حركة الحياة ؛ لأن الإنسان يريد أن يستبقى الحياة ويريد طاقة ، والطعام أدنى من الإنسان لأنه في خدمته . فإذا ما كانا يأكلان الطعام فهما في حاجة للأدنى . وإن لم يأكلا فلا بدّ من الجوع والهزال .

ولذلك فهما ليسا آلهة . بعضهم يقول : « كانا يأكلان الطعام » هي كناية عن شيء آخر هو إخراج الخبث . ونقول : ليس إخراج الخبث ضرورياً لأن الله سيطعمنا في الجنة ولا يخرج منا خبث. فهذا ليس بدليل . ويرتقي الحق مع الناس في الجدل، فاليهود قالوا في المسيح ـ عليه السلام ـ ما لا يليق بمكانته كنبي مرسل وقالوا في مريم عليها السلام ما لا يليق باصطفائها من الحق .

واليهود إذن خصوم المسيح . وأنصار المسيح هم الحواريون ! فإذا كان لم يستطع أن يصنع من خصومه ما يضرهم ولا مع حوارييه ما ينفعهم فكيف يكون إلهاً؟ والنص القرآني يقول عن مريم :

﴿ يَـٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

والمسيح نفسه كان دائماً مع الله خاشعاً عابداً . والذي يعبد إنما يعبد من هو أعلى منه ؛ فالإله لا يعبد ذاته . وإذا كان هذا قول من ينتسبون إلى السماء إيماناً بإله وإيماناً بمنهج ، فماذا عن قول الذين لا ينتسبون إلى السماء من الملاحدة الذين ينكرون الألوهية ؟

إذن كان من الواجب أن يؤمن المنسوبون إلى السماء بواسطة مناهج وبواسطة أنبياء وأن يصفوا هذه المسائل فيما بينهم . وعلى سبيل المثال كان العالم موجوداً ومداراً قبل المسيح فمن إذن كان يدير العالم من قبل ميلاده؟ ولذلك أراد الحق سبحانه جل جلاله أن يحسم الموقف . والقرآن يعلمنا :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أيمكن أن يكون المتناقضان محقين ؟ لا ؛ لأن أحدهما لابد أن يكون على هدى ولابد أن يكون الآخر على ضلال . ولذلك نقول : كلامكم لا يلزمنا وكلامنا لا يلزمكم . ونفوض الأمر إلى الإله الذي نؤمن به . وحتى نصفي هذه المسألة نذكر قول الحق :

﴿ نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين ﴾

(من الآية ٦١ سورة آل عمران)

ونقول : اجعل لعنتك على الكاذبين . حتى تخرجنا من هذا الخلاف ولا تجعل واحداً منا يسيطر على الآخر ، فأنت صاحب الشأن ، فها نحن أولاء بأنفسنا ونسائنا وأولادنا ندعو دعاءً واحداً : اجعل لعنة الله على الكاذبين منا . وما تلاعن قوم وابتهلوا إلا وأظهر الله المسألة فى وقتها . ولم يقبل أحد من أهل الكتاب هذه المباهلة ، والحق يقول :

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة
وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما
يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب
أليم ﴿٧٣﴾ ﴾

إذن فالذين لا يعلنون التوبة عن ذلك يقعون فى الكفر ويعذبون . ثم يقول الحق :

﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه
والله غفور رحيم ﴿٧٤﴾ ﴾

فكأن هذا القول يقتضى التوبة واستغفار الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

و « أفك » يعنى انصرف أو صُرف ، أى يصرفهم غيرهم . وهذا يعنى أن هذا إيعاز من الشيطان ؛ لأن المسيح عليه السلام ما هو إلا رسول مثل من سبقوه من الرسل وأمه (صدِّيقة) مصدِّقة بما جاء به ، والدليل على بشريتهما أنهما يحتاجان كسائر البشر لما يقوِّم حياتهما من طعام وشراب وكساء ، والألوهية المدّعاة منهم تتنافى مع هذا الاعتقاد وهذا هو الإفك بعينه الذى يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى .
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

والعقل يستنكر أن نعبد أحداً غير الله ، فغيره لا يملك أن يصنع الضر للخصوم ولا النفع لنفسه أو لأشياعه وأنصاره بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوه وما ملك عيسى عليه السلام أو الحواريون أن يضروهم ولا استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ينفعون به أنفسهم .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله هو السميع العليم » . وكلمة « السميع » تدل على قول . وكلمة « العليم » تدل على شىء يدور فى الخواطر ، والشىء الذى يدور فى الخواطر أهو حراسة سلطة زمنية جعلتهم يقولون هذا الكلام ؟ إنه سبحانه العليم

بذلك . فإن كان قد حصل كلام فهو قد سمعه ، وإن كانت قد دارت خواطر فى النفس فهو يعلمها ؛ لأن العاقل قبل أن يتكلم لا بد أن يدير الكلام فى النفس . وكل كلام لا بد له من نزوع . وهو سبحانه السميع العليم أزلا وأبدًا .

ويقول الحق :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝ ٧٧ ﴾

عندما يوجد شىء مشترك بين النصارى واليهود يحدثهم الله بقوله : «يا أهل الكتاب» أما الشىء الخاص فهو يتحدث به لكل فئة بمفردها . والغلو هو أن يتطرف إنسان فى حكم ما إيجاباً أو سلباً . وهو إما الإفراط فى المنزلة العالية وإما التفريط فى المنزلة الدنيا . ولذلك نجد المتناقضات دائماً فى الغلو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسيدنا علىّ - كرم الله وجهه - : « يا علىّ ، يهلك فيك رجلان . . محب غال ومبغض غال » ويقول : « يا علىّ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق »[1] .

ويقول : (يا على ستقاتلك الفئة الباغية)[2] .

إن هناك من أحب سيدنا عليًا إلى درجة أنهم اعتبروه نبياً وقالوا : إن الوحى أخطأ عليًا وجاء إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أو اعتبروا عليًا إلهاً !! وكل ذلك غلو ، فقد أحبّوه إلى منزلة فيها غلو وإفراط .

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال ، والخوارزمى فى جامع المسانيد .